فريق التفريغ بموقع الطريق إلى الله
يـــقـــدم

برنامج " مجالس القرآن سورة الأعراف "

الدرس الثاني الآيات ٤ – ٩

(باللهجة المصرية)

لفضيلة الشيخ: أحمد عبد المنعم

رابط المادة: https://way2allah.com/khotab-item-127186.htm

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد –صلَّى الله عليه وسلم– نستكمل بإذن الله –عز وجل– ما بدأناه من تفسير أو وقفات تربوية مع سورة الأعراف.

توقفنا في المرة الماضية، خلصنا الآية الثالثة "اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ" الأعراف:٣، تكلمنا المرة اللي فاتت عن موقع سورة الأعراف في ترتيب المصحف، ومجيء سورة الأعراف بعد سورة الأنعام وما في ذلك من حِكَم، بعد كده اتكلمنا عن محاور أساسية في سورة الأعراف، وبنركز دايمًا على نقطة أن الوصول لمعنى محوري في سورة طويلة أمر يُفضَّل أن يكون بعد دراسة السورة، الناس اللي بتتعجل دايمًا يقول لك إيه: قل لي كده موضوع سورة الأنعام إيه؟ كلمني كده عن موضوع سورة التوبة؟ عرفني موضوع سورة آل عمران، هو نوع من التعجُّل، لأن التعامل مع القرآن كنوع من الترف الفكري أنك تبقى عارف شوية موضوعات في القرآن لكن بدون معايشة بدون مكابدة.

قال النبي –صلّى الله عليه وسلم– فيما يروى عنه، "شيبتني هود وأخواتها"[1] أن آيات القرآن تتنزل على الإنسان تنزُّلاً، "إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا" المزمل: ٥، الموضوع، قضية في التعامل مع القرآن مش أنك تبقى عارف مواضيع، فتيجي مثلاً تقرأ سورة الكهف يقول لك لا لا خلاص أنا عرفت هي بتتكلم عن إيه؟ يعني إيه عرفت هي بتتكلم عن إيه؟ القضية أنك تعايش هذه الآيات، تتخلَّق بها في حياتك، تحاول أن تطبقها، أن تتعلم معانيها، أن تتدبر فيها، لأن التدبر في معاني آيات الله –عز وجل– لا ينتهي، "مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ" لقمان: ٢٧ ، كما قيل في هذه الآية في إحدى معانيها ما نفدت معاني كلمات الله –سبحانه وتعالى–.

بعد ما تكلمنا عن محاور أساسية في سورة الأعراف، بدأنا "المص" الأعراف: ١، وتكلمنا عن الحروف المقطعة، والخلاف اللي فيها، ثم محور من المحاور الأساسية في هذه السورة قضية الرسالة، وقضية الكتاب، أن الله –عز وجل– الذي خلق كما تعرفنا عليه في سورة الأنعام، هو في سورة الأعراف الآن يأمر ويُنَزِّل رسالة وكتاب.

---

[1] "قالوا : يا رسولَ اللهِ ! قد شِبْتَ ؟ ! قال : شيَّبتني هودٌ وأخواتُها . وفي روايةٍ : شيَّبتني هودٌ، والواقعةُ، والمرسلاتُ، وعمَّ يتساءلونَ، وإذا الشمسُ كُوِّرتْ" صححه الألباني

الذي خَلَق فقط وحده هو الذي يشَرّع

قلنا بداية الأنعام "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ" الأنعام: ١، سورة الأعراف بدأت "كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ" الأعراف: ٢، لذلك عندنا في سورة الأعراف الجمع بين الإثنين "أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ" الأعراف: ٥٤، أي أن الذي خلق هو الذي يأمر ويشرّع، لا حق في التشريع لمن لم يخلُق، لأن الذي خلَق هو الذي يشرّع –سبحانه وتعالى–، فكيف نستورد مناهج أرضية ودساتير أرضية من بشر مثلنا، لذلك قال الله –عز وجل– "اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ" الأعراف: ٣، الإنزال دائمًا يأتي من علو، فيخبرنا الله –عز وجل– أن ما معكم من كتاب جاء من علو، من الأعلى –سبحانه وتعالى–، فكيف تلجأون إلى الأرض، "وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ"، لماذا تلجأون؟ لماذا تنزلون؟ .

"وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ"، تكلمنا في معنى "قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ"، وأن قلة من الناس هي التي تستجيب، ولو جيت تتتبَّع لفظ أو كلمة أكثر في القرآن، غالبًا هتجد الأكثرية مذمومة في القرآن، يبقى الأكثرية ليس معيار في حد ذاته ممكن يضاف إليه معايير تانية، يعني الأكثرية ليست معيار في حد ذاته، "قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ"، يعني إيه ليست معيار في حد ذاته، يعني لما نيجي نحكم على فكرتين، نقارن بين فكرتين؛ بين عالمين؛ بين شخصين، القضية مش في كثرة الأتباع، مش في الكثرة، الكثرة مع عوامل أخرى ممكن تبقى فائدة، يعني كثرة اجتماع العلماء على قول مثلاً هنا أن همَّا علماء وكثير مش بس الكثرة، مش كثرة أشخاص وخلاص.

لذلك لما الإمام أحمد بن حنبل فيما قيل عنه أنه قال: "بيننا وبينهم الجنائز"، فكانت جنازة الإمام أحمد كبيرة، مش كل جنازة كبيرة تدل على الحق، لا؛ كم من هالكٍ مشهور بين الناس جنازته كبيرة وهو ليس على الحق، إنما القضية إن فيه مجموعة من العلماء وعلى الحق وكثرة، يبقى هنا الكثرة ليست في حد ذاتها معيار، لما تجتمع مع معايير أخرى قد نلجأ إليها، زي مثلًا واحد عشان يستريح معندوش القدرة على طلب العلم فبياخد برأي الجمهور من أهل العلم، جماهير العلماء، فهنا يكون فيه نسبة كبيرة من الأمان، إنما الأكثرية في حد ذاتها لوحدها كده ليست معيارًا مُطلقًا.

وظيفة كتاب الله

"قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ" يخبرنا الله –عز وجل– لما نيجي نشوف تسلسل الآيات كده، بدأت بالحروف المقطعة واتكلمنا فيها ثم أخبرنا الله –عز وجل– أن من هذه الحروف جاء هذا الكتاب المعجز، وأن هذا الكتاب ينبغي أن تنشرح به الصدور لا تضيق به الصدور، وهذا الكتاب جاء لوظيفتين وظيفة الإنذار للكفار والتذكير للمؤمنون، لتُنذر به –أي الكفار–، وذكرى للمؤمنين، ثم أخبرنا الله –عز وجل– أن بعد الإنذار والذكرى لا بد من تطبيق، لأن القرآن مش بنسمعه علشان نستمتع، القرآن بنسمعه علشان نطبقه فقال: اتبعوا، ثم بعد ذلك نبدأ الآية الرابعة.

الاستفهام قد يأتي بمعنى آخر

ثم بعد ذلك يخبرنا الله –عز وجل– أن بالفعل قليلاً من الناس هو الذي تذكر، فقال الله –عز وجل–: "وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ" الأعراف: ٤، كم هنا تفيد الكثرة، كم هي أصلًا تيجي للسؤال، لكن لما تخرج عن السؤال يكون لها دلالة تانية فنسميها كم الخبرية، يعني لما يجي حرف استفهام في جملة ولا يُقصد به السؤال يقولوا هنا أن الاستفهام اكتسب معنى آخر، استفهام مثلًا استنكاري، استفهام تعجبي لما ليس الغرض منه فقط الاستفهام، يعني لما كنا اتكلمنا من زمان في خطبة سورة الملك كنا قلنا أن من أكثر الأشياء التي تكررت في سورة الملك الأسئلة –كانت خطبة بعنوان أسئلة سورة الملك–، هذه الأسئلة ليست سؤال الغرض منها الإجابة، لا كل سؤال له غرض تعجبي، بعضهم جمعها أكثر من عشرين غرض للاستفهامات.

العبرة ليست بالكثرة

فهنا كم ليس المقصد منها السؤال، هي كم الخبرية، "وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا"، تفيد الكثرة أن كثير أوي من القرى أُهلكت بسبب إيه؟ نبص للآية اللي قبلها بسبب إيه؟ أنهم لم يتبعوا ما أُنزل إليهم من ربهم، إذًا عدم اتباع ما أُنزل إلينا من ربنا يؤدي إلى الهلاك عاجلاً أو آجلاً، ربنا بعد ما قال لنا: اتبعوا، قال لنا أن الذي لم يتبع سوف يُهلَك "وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا"، وأن الكثرة لن تمنعهم من عذاب الله، إن مش معنى إن همَّا كثير، سورة القمر "أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ" القمر: ٤٤ ، أحيانًا الكثرة والاجتماع على الباطل بيغر أهل الباطل يجعلهم في غرور، إن همَّا مش هيتغلبوا وهما كتير، يقول لك لأن احنا كتير.

القوى العالمية بتجتمع على الإسلام فلا يمكن أن تُهزَم القوى العالمية، فكانوا بيقولوا كده في بداية البعثة "أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ"، دا احنا كلنا مع بعض ضد الإسلام، "أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ"، فربنا يقول لهم إيه: "سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ" القمر: ٤٥، هذه الكثرة سوف تُهزم "سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ"، فكان التركيز على معنى الكثرة، فهنا ربنا لما قال لنا: "قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ"، فيخبرنا ربنا –سبحانه وتعالى– أن هذه الكثرة لم تمنع من نزول العذاب، وأن الله –عز وجل– لا يعجزه شيء –سبحانه وتعالى–، وأن من أهان نفسه بالمعصية استحق العذاب، هو الذي أهان نفسه، من أهان نفسه بالشرك والكفر هو الذي أهان نفسه فاستحق نزول العذاب، مينفعش يقول طيب إزاي الناس الكتير دي، لأنهم أعرضوا عن الملك –سبحانه وتعالى– وعن أوامره.

إشكالية هامة توقف عندها العلماء

"وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ" الأعراف: ٤، فيه وقفة هنا المفسرين وقفوا معها، إحنا قلنا يا جماعة إن احنا هنحاول في هذه السلسلة قدر المستطاع نعلى شوية، لذلك قلنا ياريت الناس تيجي معاها إيه ورقة وقلم، "وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا"، الفاء دي أشهر فاء معروفة في اللغة فاء الإيه؟ فاء العطف، عندنا حروف العطف اللي هما إيه؟ ثلاثة؛ ثم والفاء والواو، فقالوا: إن الفاء بتفيد التعقيب أن حدث حصل وبعدين حصل حدث ثاني، جاء محمد فأحمد، يبقى محمد جه الأول، فقالوا: إزاي "أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا"، طيب ما هو لو كان

أهلكناها طب خلاص هم ماتوا، ليه البأس جه بعد كده طب ما هُمَّا خلاص، يعني لو كان معنى أهلكناها أن هُمَّا خلاص أُهلكوا تمامًا، يبقى إيه لازمة فجاءها بأسنا؟ واضح الإشكالية الأول؟ هو التفسير كده قسمين، قسم أن تكتشف أن فيه إشكالية ده جزء، الجزء التاني من التفسير أنك تحاول حل هذه الإشكالية.

أحيانًا في التفسير تجد إشكالية ولا تجد لها حل فلا تتعجل بالإجابة، يعني تلاقي بعض المفسرين يسجل كده أن هنا أكيد فيه معنى لكنه لم يُفتح عليه بعد فيه، طيب يبقى المفسرين التقطوا هنا أن السياق كده أكيد فيه حاجة غريبة، فيه حاجة مختلفة، إن مش معنى "أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا"، لإن لو الفاء هنا بتفيد التعقيب إن البأس جاء بعد الإهلاك، طب ما لو ربنا أهلكهم معدش في ناس أصلًا يأتيهم البأس؟ واضح الإشكالية؟

شوف بقى همَّا حاولوا يخرجوا إزاي من ده؟ أو حاولوا يكتشفوا، ودايمًا معاني القرآن بتُكتَشف كده، أنك تجد إن فيه تغيير في ترتيب الجملة، أن المفعول مُقدم على الفاعل، أن حرف عطف غريب ده مش مكانه، حرف من الحروف اكتسب دلالة جديدة، كلمة غريبة، النطق بتاعها صعب، هذه القضايا بتفتح للمفسر معاني في تدبر كتاب الله – سبحانه وتعالى–.

معنا الإهلاك في الآية الكريمة

أول حاجة بعضهم قال: أهلكناها ده الإمام الطبري قال: إن ممكن يكون معنى أهلكناها أي بالخذلان عن الطاعة، وأن بداية الإهلاك أن يصرف الله –عز وجل– عنك طاعته، ففلان هالك وهو يعيش بيننا أي مصروف عن الطاعة و– العياذ بالله–، فقال: معنى أهلكناها هنا ليس الإهلاك البدني، إن أهلكناها أي صُرِفوا عن الطاعة فاستحقوا العذاب فجاءهم البأس، ومثالها قوله –سبحانه وتعالى–، أنهم يُصرفوا عن الطاعة فيستحقوا العذاب فيأتي العذاب،"وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا" الإسراء: ١٦، يبقى إذا أردنا أن نُهلِك أن همِّا "أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا"، والكلام في هذه الآية طويل، لأن فيه خلاف كبير في معنى أمرنا والقراءات اللي فيها، "فَفَسَقُوا فِيهَا"، الشاهد أن لما فسقوا استحقوا العذاب "فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ"، فهنا المعنى الأول لأهلكناها فجاءها، أهلكناها أي بالخذلان.

معنى آخر أهلكناها أي حكمنا بإهلاكها ولم يأتي التنفيذ بعد، أي في قضائه –سبحانه وتعالى–، يعني ربنا قضى أن هذه القرية سوف تُهلَك، سنن ربنا اللي وضعها في الكون أن هذه القرية سوف تُهلَك، فبعد أن استحقت بقضائه – سبحانه وتعالى– وبعدله الإهلاك فجاءها البأس، فهنا الفاء عادي ممكن تفيد التعقيب. واضح المعني الثاني ولا مش واضح؟

يبقى المعنى الأول إيه؟ الإهلاك بمعنى الخذلان عن الطاعة، المعنى الثاني الإهلاك هيبقى بمعنى إيه؟ القضاء والحكم لكن لسه التنفيذ جه بقا فجاءها بأسنا، أي قضينا بذلك فجاءها بأسنا.

المعنى الثالث بعضهم قال لا، طب ما احنا ممكن قضية إن خذلناها عن الطاعة أو المعنى الثاني اللي هو الحكم أنتوا ماسكين إن الفاء تفيد التعقيب، طب ما احنا نغير معنى الفاء بدل ما نغير معنى الإهلاك، نقول: إن الفاء هي اللي لها معنى مختلف مش الإهلاك هو اللي له معنى مختلف، فقالوا: الفاء ممكن، بعضهم اختلف في التسمية لكن مجازًا هنسميها تفسيرية، يعني إيه تفسيرية؟ يعني الإهلاك هو هواه فجاءها بأسنا، مثال مثلًا نضرب لكم مثال يبسط الموضوع، أنا مثلًا مسكت فلان ضربته فكسرته، طب ما هو الضرب هو هواه التكسير، يعني الفعل اللي حصل في فلان التكسير هو هواه إيه؟ يعني مش بعد ما خلص ضرب رجع تاني وكسره، لا، يقول لك: أنا أكلت الأكل فنسفته، ما هو الأكل ده كان هو هواه النسف هو هواه.

فقالوا: إن الفاء دي فسرت إن الأكل ده مختلف، كان فيه معنى النسف مثلًا، وإن ضربته فكسرته إن الضرب ده كان مختلف، فالفاء تفسيرية لهذا الفعل، فقالوا: إن أهلكناها كيف كان هذا الإهلاك؟ جاء البأس في وقت الغفلة، "أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ"، أوقات الغفلة هنتكلم عنها، قالوا: بدل ما نغير معنى الإهلاك طب ما احنا نتكلم إن الفاء هنا فاء اللي هي التفسيرية، دي أشهر الأقوال اللي قيلت.

ومما قيل وأشبه بالأقوال السابقة أن الزمن عند ربنا مختلف، إن "أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا"، إن الله –عز وجل– إذا قضى أمرًا فمفيش مسافة، إذا قال له كن فيكون، فقالوا: إن الفاء دي مبتفيدش تعقيب، برضه كن فيكون دي إن مفيش مسافة زمنية بين كن ويكون لا، ده ده بس في تخيلنا احنا، لكن الزمن عند ربنا مختلف فحتى لو الفاء دي عند البشر تفيد فارق زمني معين لكن هي عند ربنا لا، ده فارق بين معاملة البشر ومعاملة ربنا –سبحانه وتعالى–، ده قول رابع في الآية.

نتيجة الإعراض عن طاعة الله وآياته

"وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ"، أي هم كثير وكأن فيه وأنت بتقرأ هذه الآية تتحسر، أن ناس كتير أوي بعدت عن ربنا، ناس كثير جدًا لم تتذكر بالرغم من وجود الآيات، الله –عز وجل– لم يتركهم سُدى أرسل إليهم الرسل وأنزل إليهم الكتب وبالرغم من ذلك قليلاً ما تذكرون، "وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا" قلنا سبب الإهلاك إيه؟ عدم الاتباع، علشان نمشي مع سياق الآيات كده، لم يتبعوا ما أُنزل إليهم فأهلكهم الله، "وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا"، كما جاءتهم الرسل فأعرضوا فيأتيهم البأس، "فَجَاءَهَا بَأْسُنَا"، البأس القوة التي لا تُدفع.

لما نيجي نتكلم على البأس، علماء اللغة لما ييجوا يتكلموا عن كلمة البأس فبعضهم قال: ده القحط أو الفقر والجدب، وبعضهم قال: البأس كلمة العرب كانت تستعملها في الإيه؟ يعني لما يقولوا اشتد البأس ده بيجي في الحرب، كلمة البأس العرب كانوا بيستعملوها في الحرب، فلأنهم حاربوا الله بالمعصية وبالإعراض عن كتابه فانظروا ماذا حدث؟

"فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ" البقرة: ٢٧٩، زي ما قال الله –عز وجل– عن آكل الربا، فهنا "فَجَاءَهَا بَأْسُنَا"، كأن في إشارة أن الذي يُعرض عن شرع الله –عز وجل– إنما يحارب الله لا يحارب أهل الإيمان، هو معتقد أنه بيغيظ أهل الإيمان لما يبتعد عن الشرع، هو مشغول بالبشر فربنا يقول له: أنت تحارب الله بابتعادك عن شرعه.

"فَجَاءَهَا بَأْسُنَا"، والنسبة لنون العظمة مش فجاءهم البأس، "فَجَاءَهَا بَأْسُنَا"، أي أنه بأس مختلف لم تروه من قبل، قوة الله –عز وجل– وعزة الله –سبحانه وتعالى– هو العزيز الذي لا يُغَالب،لا يُدفَع؛ عذاب لا يُدفَع، مهما بلغ البشر من قوة لن يستطيعوا دفع العذاب، ما له من دافع، مفيش حد يعرف يهرب منه، عذاب الملك –سبحانه وتعالى– إذا نزل نعوذ بالله من ذلك.

عذاب الله قد يأتي في أوقات غفلة الإنسان

"فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ"، البيات: النوم بالليل أو الجلوس في طمأنينة في مكان ليلًا، يقولوا: فلان يبيت في مكان، قائلون: نوم الظهيرة، دي أوقات الغفلة التي يكون الإنسان فيها مستريح، يعني اللي بينام بالظهر وبينام بالليل مش خايف من حاجة، القلقان مينمش في الأوقات دي، القلِق المفزوع لا ينام في هذه الأوقات، "فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ"، "فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ" الأعراف: ٥، اللي بينام بالليل أو بينام الظهر ده غالبًا مطمئن، أو، طب لو هو خايف من حاجة إيه اللي هيجيله نوم بالليل أو الظهر يبقى هو عامل إيه؟ يعني هو خائف وبالرغم من كده ينام يبقى عمل إيه؟ فنام مستريح ومطمن، حراسة، هو مطمئن، طيب طالما أن قلقان من حد مثلًا طيب أنا هضع حراسة شديدة وهكون في مكان منيع في حصن مشيد لن يستطيع أحد الوصول إليَّ.

قتلاقيه بالرغم أن في أعداء يتربصوا به إلا إن هو إيه؟ نائم مطمئن، فهنا ربنا بيقول: أن همَّا وصلوا لمرحلة من الطمأنينة إن حتى الرسل خوفتهم من العذاب لكنهم مش خايفين، اللي هي مرحلة النسيان، في آية كاملة أو آيتين في الأعراف بتفصل إن الناس إزاي بتوصل لمرحلة الغفلة، نسيان ما ذكروا به، وده ذكرت في الأنعام والأعراف بصيغ مختلفة سنتكلم عنها إن شاء الله، أن هو يوصل أن إيه معدش خايف أصلًا، يعني فيه أحيانًا واحد بيعمل معصية تلاقيه نائم تعبان خائف متضايق، هو عدى هذه المرحلة دي، هو بقى ينام وهو مطمن عادي جدًا.

عادي جدًا هو نائم مش حاسس إن هو عامل حاجة غلط، لما الإنسان بيصل إلى هذه المرحلة من الغفلة يأتيه العذاب فجأة بغتة، فكلمة "بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ" بتوضح لك الحالة النفسية اللي الناس وصلتها من الإعراض، أنه معدش خايف من حاجة، خلاص اللي هو "وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ" الحشر: ٢، اللي هو "مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا" الكهف: ٣٥، اللي هو حس أنه وصل لمرحلة من الاستقرار أن ما فيه من نعيم لن يذهب أبدًا، فأصبح ينام وهو مطمئن، مش خايف من حاجة.

"فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ"، دي أوقات الراحة والغفلة، والعذاب لما يأتي في هذه الأوقات يكون مؤلم، أنت لما بيحصل مشكلة بالليل ومتعرفش تنام بتبقى متنكد، لما عيل من العيال يقعد يعيط طول الليل ويقرفك، مش بقول أن ده عذاب، قصدي المشاكل في الأوقات دي، ده وقت النوم، فتخيل لما يأتيهم بأس الله، شوف العذاب لما يأتي في وقت النوم والغفلة يكون له أشد قوة وأشد لذعة، أول لما جه العذاب، "فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ"، هنجد هنا أن السورة في أول المقطع قبل حكاية القصة من الأول من أول خلق آدم، نجد أن السورة عملت مقدمة سريعة كده للي بيحصل وبعد كده فصلت.

إحدي أساليب القرآن الملخص ثم التفصيل

وده من أساليب القرآن، تعمل مقدمة ملخص سريع في ناس جلهم كتاب أعرضوا عنه فاتعذبوا، فجه يوم القيامة فاتسألوا فاتوزنت أعمالهم فدخلوا النار، وبعدين نحكي القصة من أولها،"وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ"، دي مقدمة في سورة الأعراف ملخص سريع وبعد كده يأتي إيه؟ التفصيل، ولذلك احنا قلنا من معاني ص اللي رويت عن بعض السلف ألمص، أنا الله أعلم وأفصل، ففي مجمل الأول في سورة الأعراف وبعدين في تفصيل في السورة.

فملخص سريع جالهم الكتاب، "قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ"، أعرضوا عنه، أهلكهم الله، ماذا فعلوا بعد نزول العذاب، "فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ"، "فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ" الأعراف: ٦، "فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ" الأعراف: ٧، أنا هشرح هفصل دلوقتي، لكن شوف إزاي العذاب الدنيوي متبوع مباشرةً، بعد ما أُهلكوا في الدنيا "فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ"، متبوع بمشهد القيامة، القطع، مفيش فواصل زمنية بين الدنيا والآخرة، هذا لا تجده إلا في القرآن، النقلة السريعة مباشرةً بين الدنيا والآخرة وكأنهما في مشهد واحد متصل، هذا في القرآن، لتكون عقيدة المؤمن هكذا، أن الدنيا عنده مربوطة بالآخرة مش منفصلة عنها، فلا يجزع من طول البلاء في الدنيا.

هو عارف أن المشهد متصل، فلما بيشوف أناس من أهل الإيمان قُتلوا وعُذبوا وشُردوا في الدنيا لا يفزع لا ييأس لا يحبط ليه؟ لأن عنده المشهد لم ينتهي بعد، حينما ينظر المؤمن إلى نهاية أصحاب الأخدود في سورة البروج ويجد أن النار تأكلهم وتشتعل بهم، هو لا يجزع؛ يعلم أن المشهد لم ينتهي بعد، أن الآخرة متصلة بالدنيا، الدنيا عنده مربوطة ببعضها، "فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ".

معنى دعواهم

يعني إيه دعواهم؟ العلماء قالوا: فيها ثلاث معاني:

المعنى الأول: المشهور فما كان دعاؤهم، دعواهم بمعنى دعاؤهم، "وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" يونس: ١٠، فالدعوة أحيانًا تأتي بمعنى الدعاء، وأن بمجرد ما ذاقوا البأس قالوا إيه "قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ"، إنا كنا ظالمين عبارة

عن إيه؟ عبارة عن اعتراف بالذنب، مقلش ربنا اصرف عنا العذاب ده بيقول إنا كنا ظالمين بيعترف، طيب هو مش من لحظات كان بينكر، كان بيجادل، كان معرض، كان غافل؛ بمجرد ما ذاق العذاب، أنت عارف ممكن قبل ما يشوف العذاب يقول لك أنا مش مقتنع، أنا مش مقتنع أن ده حرام، أنا مش مقتنع إن شرع ربنا ينفع أو يجب أن احنا نتبعه، أنا مش مقتنع، أول ما يذوق العذاب، أنا طلعت غلطان، هو أنت اقتنعت فجأة، يعني بمجرد ما رأى العذاب اقتنع، هو العذاب لما نزل كان معه حجة وأدلة، ولا هو الإنسان دائمًا كثير من الناس لا يستجيب إلا للقوة، لا يستجيب بمعايير العقل يعني لما حد يكلمه ويقنعه وجيب له بالآيات والبينات يعرض.

و احنا قلنا إن من محاور سورة الأعراف التعامل الخاطيء مع الآيات، وقلنا: إن كلمة آيات أكثر كلمة تكررت في سورة الأعراف؛ آيات، وأكثر سورة جاءت فيها كلمة آيات سورة الأعراف أكثر من أي سورة أخرى، بمجرد ما رأوا العذاب دون اقتناع أو أدلة أو مناقشة اعترفوا، فالشاهد من ده إيه؟ لو قلنا دعوة هنا بمعنى دعاء وأن هذه الكلمة خرجت اعترافًا حقيقيًا منهم لا مجرد هروب من العذاب، إن اللي اختار القول ده، مآل هذا الكلام ده إيه؟ أن كثير من الناس يعرض لا عن اقتناع إنما شهوة، فمتضيعش وقتك معاه، فيه ناس لما توصل لمرحلة من السفسطة والجدال لا تكمل معهم النقاش، القضية هنا هو مش معرض عن عدم اقتناع، لا ده شهوة.

فمجرد ما يقع في مرض عظيم أو ورطة أو في نصف البحر يا رب، خلاص أنا عرفت إن أنا كنت غلطان، "إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ"، فهنا فيه إشارة إن كثير من إعراض الناس هو مبني على شهوة، مش مبني على مثلًا إن هو مقتنع بحاجة غلط، هو بيتبع شهواته، طيب ده معنى.

بعضهم قال: دعوة أي ادِّعاء، هو يدَّعي ذلك بيقول أي كلام عشان يهرب من الإيه؟ يهرب من العقاب وخلاص، وأن هذا مجرد ادِّعاء فلذلك لم يُستجب له، ده إدِّعاء زي كلام فرعون "قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ" يونس: ٩٠، كل الآيات تسع آيات بينات مفصلات تعرض عنها وأول ما بدأ يغرق اقتنع، أنا فعلًا اقتنعت، طيب ما احنا بنكلمك بقالنا سنين، فأول ما بدأ يشعر بالغرق قال: آمنت، خذ بالك لم يقل: آمنت بالله الذي لا إله إلا هو، قال: آمنت أنه لا إله إلا إيه؟ ليه قال: آمنت بإله بني إسرائيل، لأنه شاف إن إله بني إسرائيل نجاهم، أنا عايز من ده، يعني هو عايز ينجو وخلاص، هو القضية أن هنا هو يفكر في النجاة، لا يريد الإيمان، لذلك لم يستجب له، فإن الدعوة ممكن تأتي بمعنى آخر بمعنى الادِّعاء.

معنى تاني قال: إن الدعوة هنا فيه لفظة محذوفة يدل عليها السياق، وهي مآل؛ فما كان مآل دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين، يعني إيه مآل دعواهم؟ يعني قعدوا يدَّعوا على ربنا ويفتروا ويقولوا الشرك ويخترعوا قوانين ومناهج أرضية، ادِّعاءات وافتراءات على الله –عز وجل–، ماذا كان مآل هذه الأشياء حين نزول العذاب لم تنفعهم شيئا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين، فين؟ أين ما إدَّعيتم؟ أين آلهتكم؟ أين أوليائكم؟ أين هم؟ فين همَّ؟ فما كان دعواهم

أي فما كان نتيجة الكفر والتكذيب، فما كان مآل هذا إلا أن كانت النتيجة محدش نفعكم، لم تغن عنهم آلهتهم من الله شيئًا، "وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ" الأنعام: ٩٤، راحوا فين؟

فمعنى ثالث أن كل منهج تتبعه غير دين الله –عز وجل–، غير كتابه سوف تتخلى عنه في يوم من الأيام وتكفر به في يوم من الأيام حين نزول العذاب، فاتركه الآن، "فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ"، يبقى كده دعوة فيها إيه، كلمة دعواهم فيها ثلاث أقوال:

المعنى الأول: الدعاء وإن هو صادق في كلمة "إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ" لما نزل العذاب، وده قالوا المعنى فيها إنه كان متبع لشهواته لا يحتاج إلى إقناع.

المعنى الثاني: دعواهم الإدِّعاء أنه لا يفكر إلا في النجاة وفقط مثل فرعون.

المعنى الثالث: دعواهم مآل أو نتيجة؛ أن الله –عز وجل– يخبرنا أن نتيجة الكفر ونتيجة التكذيب والمعاصي أن الإنسان يعترف على نفسه بالمعصية وبالذنب هذا يكون المآل، وروي عن النبي –صلّى الله عليه وسلم– في حديث ضعفه بعض أهل العلم "أن الله –عز وجل– لا يُهلِك قومًا حتى يعذروا من أنفسهم"[٢]، أي حتى يعترفوا بأنفسهم أنهم كانوا مقصرين، يعترف ثم يهلكهم الله –عز وجل–، وقرأ ابن مسعود هذه الآية بعد ما روى هذا الحديث.

"إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ"، قلنا انتقال للمشهد مباشرة "فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ"، هذا السؤال يكون متى؟ يوم القيامة، وهذا الإهلاك كان في الدنيا، ممكن يكون ما بين الإهلاك اللي في الدنيا قرون سابقة من الأمم السابقة أُهلكوا خلاص، ويأتي سؤال يوم القيامة بعده بمئات وألوف السنين ثم تأتي هذه الوصلة بهذه الفاء "فَلَنَسْأَلَنَّ"، علشان المؤمن لا يستطيل الحياة الدنيا ويشمل أن الآخرة مرتبطة بالدنيا، "فَلَنَسْأَلَنَّ"، خلاص الناس أُهلكت، وجالهم رسول وكتاب واجتمعت الخصومة عند الله –عز وجل–.

الإنسان لا يعيش عبثًا سنُسأل عن كل شيء

ثم جاء السؤال "فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ"، المرة اللي الفاتت لما اتكلنا قلنا إن محاور سورة الأعراف قضية الرسالة أو الكتاب أو الآيات، قلنا هيكون فيه إشارات في السورة لذلك، هنا ربنا مقالش فلنسألن الأقوام ولنسألن الأنبياء، لا جاب اسم موصول فلنسألن الذين اسم موصول بيجي للتعريف بقضية معينة، التركيز هنا لما تيجي تقرأ الآية التركيز على إيه؟ آية ٦ التركيز على إيه؟ على الرسالة محور الرسالة، ربنا سمّى الأقوام أرسل إليهم يعني بقوا معرَّفين أن أنتوا أقوام جالكم رسالة، واللي جالهم ربنا سماهم رسول "وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ"، ربنا مقلش فلنسألن الأقوام، لأن القضية أن الله –عز وجل– يريد أن يبين لنا أن محور الرسالة محور مهم تُسألون عنه يوم القيامة.

---

[٢] " لن يهلِكَ النَّاسُ حتَّى يعذروا، أو يعذروا من أنفسِهم" صححه الألباني.

الإنسان مش عايش عبث، "أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا" المؤمنون: ١١٥، الإنسان مش عايش سُدى، "أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى" القيامة: ٣٦، القضية مش كده، "فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ"، ربنا يقول لهم: ماذا فعلتم مع رسالاتي؟ ربنا قال لكم في أول سورة الأعراف "اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ"، هل اتبعتم رسولي؟ هل اتبعتم رسالاتي؟

ثم يسأل الرسل ماذا قلتم لهم؟ هل بلغتم الرسالة؟ لذلك السؤال ده "وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ"، حير المفسرين، ماذا سيسأل الله –عز وجل– الرسل؟ ربنا هيسأل الرسل ليه؟ طيب "فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ"، واضحة، لأنهم كذبوا، طيب "وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ"، هيسألهم عن إيه؟ بعضهم قال سيسألهم ماذا فعلت الأقوام وقالوا الدليل على ده من القرآن؟ "يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ"، أي ماذا كانت إحابة الأقوام؟ "قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا " المائدة: ١٠٩ لذلك الإمام الطبري روى بعض الآثار أن هنا الرسل لما قالوا معندناش علم "قال معناها أن من هول الموقف معرفش يجاوب" ، دول الرسل في آخر سورة المائدة، من هول الموقف معرفش يجاوب، بعضهم قال: إن عدم العلم أننا منعرفش إن كان سؤال الملك –سبحانه وتعالى– لهم ماذا فعلت الأقوام بعد موتكم، فيقولوا: يا رب لا نعلم.

بعضهم قال: لا السؤال للمرسلين مش بس ماذا أُجبتم؟ السؤال للمرسلين هل بلغتم رسالاتي كاملة، زي برضه في آخر سورة المائدة ربنا يقول لسيدنا عيسى "أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ" المائدة: ١١٦، أنت قلت كذا وكذا، طيب كذا وكذا اللي أنت قلته أنا قلت لك تقوله؟ حينما يتخيل الداعية إلى الله –عز وجل– هذا السؤال، المفروض يفزع ويخاف، كل كلمة أنت قلتها ربنا قال لك تقولها؟ أنت قلت للناس كده ليه؟ لماذا تكلمت وبلغت هذه الآيات؟ أأنت قلت للناس كذا وكذا، تخيل لو كل داعية يستحضر هذه الأسئلة، لذلك من الاحتراز التزام النصوص، علشان لما تيجي تُسأل يا رب أنا بلغت رسالاتك آيات وأحاديث، كل ما تبتعد كل ما تكون في خطر.

"وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ"، هل بلغتم الرسالة؟ ونشوف حوار في نفس السورة أيضًا عشان هقرأه لكم بسرعة يبين أيضًا أن المحور قضية الرسالة، في قصة نبي الله صالح آية ٧٥ في نفس السورة "قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ"، من قوم صالح؛ الملأ، "قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ"، راحوا يسألوا مين؟ "لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا" بس مش كلهم "لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ"، لأن مش كل المستضعفين آمنوا، "لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ "، راحوا سألوهم إيه؟ "أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ"، بيسألوا على قضية إيه؟ الكفار بيسألوا على الرسالة، الإجابة بتاعت "أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ"، المفروض المتوقع تبقى إيه؟ آه أو لا، أتعلمون سؤال الاستفهام ده اللي هو بيسموه إيه؟ yes or no question، آه أو لا، احنا المستكبرين رايحين يسألوا المستضعفين صالح مرسل ولا مش مرسل.

المؤمنين بقى شوف الإيمان الكامل قالوا له إيه "قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ" الأعراف: ٧٥، تجاوزوا الإجابة بنعم، ده مش بس مرسل نحن آمنا بما أرسل به، القضية كلها تدور حول محور الرسالة.، الكفار من عِنادهم قالوا إيه ؟ قال الذين استكبروا مش إنا بما أرسل به كافرون، "إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ" الأعراف: ٧٦، بصوا أي حاجة أنتم مؤمنين بها

إحنا كفار بيها وخلاص كده، أي حاجة أنت مؤمن بها أنا مبحبهاش، حتى لو هيصـــلوا في الحوش بتاع المدرســـة مبنحبهاش وخلاص، أي حاجة أنتوا بتعملوها إحنا مبنحبهاش، اللي هو عِند.

وده بيؤكد معنى أن كلمة دعوة، أن القضـية أنه هو كان عناد، الكفر هنا كان عناد، الآيات واضـحة، مداش لنفسـه فرصة لما سأل المستضعفين المؤمنين، لما سألهم إن صالح مرسل من ربه، والمؤمنين جاوبوا "قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ" مقلهمش طب اطرحوا لنا كده إيه الرسـالة؟ اشـرحوا لنا كده إيه رسـالة بتاعت صـالح جايز نؤمن؛ ده الطبيعي، لا هو كده أي حاجة أنتم مؤمنين بها إحنا كفار بيها وخلاص.

فهتجد أن محور الرسـالة معانا في السـورة إن شـاء الله، "فَلَنَسْـأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِـلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـأَلَنَّ الْمُرْسَـلِينَ"، طب هذا السـؤال شـوف أنا عايزك دايمًا تتابع معايا اتصـال الآيات، هذا السـؤال حتى لا يقع في أذهان بعض الناس أن هذا السـؤال لم يكن عن علم، فقال بعدها ربنا سـبحانه وتعالى: "فَلَنَقُصَّـنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ" الأعراف: ٧ ، هذا السـؤال ليس لأن الله –عز وجل– لا يعلم حاشـاه –سبحانه– ولكن للتقرير، لما ربنا سأل سيدنا عيسى "أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ"، كان ليبرأه أمام الناس، ليكون جوابه حسرةً على النصارى يوم القيامة ليقف أمامهم يتبرأ منهم، لذلك قال له كان في جواب عيسى عليه السلام "مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ" المائدة: ١١٧، أنا بلغت، في نفس سورة الآيات اللي أنا بقولها دي في سـورة إيه؟ المائدة في آخر سـورة المائدة، في نفس سـورة المائدة "يَا أَيُّهَا الرَّسُـولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ" المائدة: ٦٧.

فمحور السؤال عن المضمون ماذا قلت للناس؟ فهنا ربنا بيقول "فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ"، هذا السؤال لم يكن عن عدم علم –سبحانه وتعالى–، "فَلَنَقُصَّـنَّ"، أي على الأقوام وعلى المواقف التي حدثت بين الأقوام والرسـل، قال ابن عطية "فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ" قال "قصةً قصة"، ربنا هيقول لهم اللي حصل قصة قصة، موقف موقف هيتحكى لهم، أنتم في يوم كذا اتعرض عليكم الدين، استهزأتم كذبتم أعرضتم، عذبتم، شردتم، فعلتم، كفرتم، استهزأتم قصة قصة.

يا لحسـرة الإنسـان وحياته تُعرض عليه قصـة قصـة وهو في غفلة، وبعلم،"فَلَنَقُصَّـنَّ"، تأكيد لام القسـم، "فَلَنَقُصَّـنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ"، تخيل لما الأحداث ترجع تاني تتكرر، نسـأل الله أن يعفو عنا، أحيانًا فيه معاصـي الواحد لما بيفتكرها بس يبيبقى عايز يرمي نفسـه في البحر، من سـتر الله –عز وجل– على المؤمنين، من سـتره على المؤمنين ألا يخبرهم بها، أو يخبرهم بها وهم في كنفه وفي ستره ثم يعفو عنهم، لكن تخيل لما ده يتحكى قدام الناس كلها و–العياذ بالله–.

"فَلَنَقُصَّـــنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ"، ياريت نطلع بالشـــعار ده، الشـــعار القرآني ده، نطلع به النهاردة، تمر على الإنسـان أحداث تجعله يكاد يشـك في وجود الله، قد يتعجب ويتسـاءل أين تدخل القدرة الإلهية؟ تمر على الإنسـان ابتلاءات متتاليات من موت لشـباب وتقتيلهم، من تعذيب، من تشـريد وتنكيل، قد تجعل بعض الناس يتسـاءل، تأتي

هذه الآية لتجعل الإنسان يعيش مطمئنًا، "وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ"، إياك أن تعتقد أن هذه الأحداث حدثت بمنأى عن علمه وقدرته أبدًا، إنما حدثت ليستخرج منا العبودية، هذه الأحداث قدرها الله –عز وجل– ليستخرج العبودية من أهل الإيمان والطغيان والكفر منهم، "لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ" الأنفال: ٤٢ .

الله –سبحانه وتعالى– لا يغيب

الشعار ده وشعار مشابه له "وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ"، اللي هو مين؟ "وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ" إتقالت عن مين في سورة إيه؟ سورة الأنبياء، عن مين بقا؟ سيدنا إبراهيم، "وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ" الأنبياء: ٥١، أحد الأقوال فيها أي في اللحظات والابتلاءات التي مر بها من تجميع قومه له الحطب وإرادة إلقائه في النار، ولما رموه في النار في هذه اللحظات كان الله –عز وجل– معه لم يتركه في محاوراته ومجادلته لقومه لم يكن الله –عز وجل– غائبًا عنه، هذه الآية دي بتخليك مطمئن "وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ"، إياك أن تعتقد أن علم الله –عز وجل– يغيب عنه شيء، "لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ" سبأ: ٣ ، ما تسيل قطرة دم إلا ويعلمها الله –سبحانه وتعالى– "وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ".

لما هتيجي تسمع استكبار الأقوام والملأ على مدار السورة ممكن تتعجل فين ربنا؟ لكن في سنن للعذاب، في سنن لنزول العذاب، لأن سورة الأعراف أيضًا من المحاور يمكن احنا مش عايزين نتعجل؛ لكن من المحاور وحاولوا تفكروني كده إن شاء الله، أن بتعرفك تطور الأمم في التكذيب والفحش وأن المعصية بتتطور وأن الفحش بيزداد، لا تتوقف عند أمر معين، فأنت ممكن مع تطور المعصية تقول إيه ده؟ فين الله؟ فيخبرك الله –عز وجل– "فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ".

أي حدث مؤلم تسمع عنه من موت شابٍ؛ من تقتيل؛ من تشريد تذكر هذه الآية "وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ"، ثم بعد ذلك "وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ" الأعراف: ٨، تتابع الأحداث كده تاني راجع، جالهم كتاب، "قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ"، أمر بالاتباع أعرضوا أُهلكوا، جاءهم البأس، طلبوا النجاة "إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ"، انتقل مشهد يوم القيامة، السؤال الإخبار بأفعالهم، الآن جاء وزن الأعمال حتى لا يظلمهم الله –سبحانه وتعالى–، تخيل وحتى يعلمنا الله –عز وجل– ذلك.

الله –عز وجل– من فضله وكرمه لا من عدله فقط، من فضله وكرمه يزن لهم الأعمال أمامهم، طب ما ربنا لو أهلكهم وأدخلهم النار لن يسأله أحد –سبحانه وتعالى–، من يملك من الله شيئًا، لكن من فضله وكرمه وكمال عدله يزن لهم أعمالهم يسألهم ويقص عليهم، ثم يزن أعمالهم، شوف لنسألن، لنقصن، "وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ۚ"، فيه ميزان يوم القيامة توزن به الأعمال، "وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ۚ".

الموازين يوم القيامة ستكون مختلفة عن موازين الدنيا

فكلمة "وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ۚ"،معناها إيه؟ سريعًا كده

بعضهم قال: معناها والوزن الحق يومئذٍ، الحق دي صفة للوزن.

بعضهم قال: والوزن لا يكون حقًا إلا في ذلك اليوم، الشاهد أن ده فيه إشارة إن كثير من موازين أهل الدنيا مغلوطة، ومعايير كثيرة البشر بتستعملها غلط، وأن لازم المؤمن يضبط ميزانه في الدنيا على ميزان الآخرة، هذا هو المُفلح، ثاني الميزان يأتي لوزن الأشياء الثقل من الخفة، يعني لما تيجي توزن حاجة أي وزن أنت توزنها علشان تعرف هي جيدة أو ثقيلة خفيفة، عايز توزنها يقول لك تعال نوزن الكلام ده مع بعض، الكلام ده إيه أي كلام، ده كلام خفيف، في قول ثقيل "إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا" المزمل: ٥، فيه كلام بميزان الشرع هو ثقيل، وفي كلام في ميزان الشرع كما أخبرنا النبي –صلَّى الله عليه وسلم– "أن الرجل يأتي الرجل التافه يتكلم في أمور العامة يوم القيامة"[٣]، فكلامه لا قيمة له.

هذه الموازين غالبًا مختلة في الدنيا، الناس لا تتعامل بها، معايير الدنيا القوة الغنى الجمال له معايير ثانية، الناس بتتعامل بتنبهر بأشياء، لكن فيه معايير مختلفة، اللي هيستطيع ألا يتأثر بفتن الدنيا ومعايير الدنيا ويضبط الميزان بتاعه على ميزان الآخرة هو المُفلح، لذلك قال ربنا –سبحانه وتعالى–: "فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" الأعراف: ٨، لذلك قال بعض أهل العلم: كانت الطاعة ثقيلة عليهم واجتهدوا وجاهدوا أنفسهم فثقلت الموازين، جاهدوا أنفسهم، "اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا" آل عمران: ٢٠٠ ، أما الأعمال التي كانت خفيفة على النفوس أي حاجة نفسه عايزاها يعملها فتكون نفسه خفيفة وأفعاله لا قيمة لها، إنسان تافه فيتحط موازينه، فموازينه تكون خفيفة.

لذلك فيه كلام ثقيل يأتي يوم القيامة له ثقل ووزن في ميزان يوم القيامة، فيه أعمال ثقيلة يعني ممكن واحد يعمل عند الناس في الدنيا أنه عمل عظيم جدًا وهو يوم القيامة لا يزن شيء، كما أخبر النبي –صلَّى الله عليه وسلم– "يؤتى بالرجل يوم القيامة بالسمين العظيم"[٤]، رجل يعني عند أهل الدنيا رجل فخم جدًا هو لا يساوي عند الله جناح بعوضة، كما "ضحك بعض الصحابة من دقة قدم ابن مسعود –رضي الله عنه–، فقال: أتضحكون من دقة قدمه وساقه، أثقل في ميزان يوم القيامة من جبل أحد"[٥]، موازين يوم القيامة مختلفة عن الدنيا، لذلك المعايير الزائفة.

قيمة الأعمال والكلام تكون بميزانها يوم القيامة

كان في خطبة بهذا المعنى إن فيه معايير زائفة قد تسيطر علينا، فيخبرنا الله –عز وجل– أن الذي يثقل في ميزان يوم القيامة هو الذي أخبر الله عنه أنه ثقيل، "فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ" الأعراف: ٨ ، لذلك لو أنت لقيت أن كل حياتك سهلة وخفيفة عليك ومفيش حاجة بتجاهد فيها نفسك يبقى فيه حاجة فيها غلط، "وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ" النازعات: ٤٠، اللي هيخش الجنة لازم يقول لنفسه لأ، "وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ" النازعات ٤٠: ٤١، اللي مش هيعرف يجاهد نفسه ولا يقول لنفسه هذه الكلمة لا، لا يستطيع أن ينهى نفسه عن الهوى؛ موازينه خفيفة.

---

[٣] "سيأتي على النَّاسِ سنواتٌ خدَّاعاتُ يصدَّقُ فيها الكاذِبُ ويُكَذَّبُ فيها الصَّادِقُ ويُؤتَمَنُ فيها الخائنُ ويُخوَّنُ فيها الأمينُ وينطِقُ فيها الرُّوَيْبضةُ قيلَ وما الرُّوَيْبضةُ قالَ الرَّجلُ التَّافِهُ في أمرِ العامَّةِ" صححه الألباني

[٤] "إنَّه لَيَأْتي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَومَ القِيامَةِ، لا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَناحَ بَعُوضَةٍ، وقالَ: اقْرَؤُوا، {فَلا نُقِيمُ لهمْ يَومَ القِيامَةِ وزْنًا}" صحيح البخاري

[٥] "أنَّ عبدَ اللهِ بنَ مسعودٍ كان يحتَزُّ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سواكًا مِن أراكٍ وكان في ساقَيْهِ دقَّةٌ فضحِك القومُ فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : ما يُضحِكُكم مِن دقَّةِ ساقَيْهِ والَّذي نفسي بيدِه إنَّهما أثقَلُ في الميزانِ مِن أُحُدٍ" صحيح ابن حبان

انظر إلى أعمالك، قيم أنت أعمالك، قيم أنت كلامك هل هو من الكلام الثقيل الذي يكون هو له وزن عند الله؟ قيم أنت أفعالك، فيه واحد ضحَّى وجاهد ونصر دين الله وبذل، في معايير الدنيا قد يكون فعل قد يعتقدونه سفيهًا، "سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا" البقرة: ١٤٢، "قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ" البقرة: ١٣، قالوا عن المهاجرين والأنصار في أول سورة البقرة، يهود ومنافقو المدينة، قالوا عن تضحية المهاجرين بأوطانهم وأموالهم وعن تضحية الأنصار بأموالهم، قالوا عن هذا الفعل أنه سفه، فأخبرهم الله –عز وجل– أنهم هم السفهاء، موازين مختلفة، فأنت قيم أفعالك هل هي ثقيلة في ميزان الشرع؟

يعني ممكن إن أنت ضغطت على نفسك وصحيت صليت الفجر، ممكن واحد شايف أن ده يعني إيه يعني إيه المشكلة وهو ثقيل، لذلك يقول النبي –صلَّى الله عليه وسلم– أن فيه أعمال ثقيلة على المنافقين لا يستطيعونها، فلا يفعلونها، "أثقل الصلاة على المنافقين الفجر والعشاء"[٦].

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد –صلَّى الله عليه وسلم–، يقول ربنا –سبحانه وتعالى– "وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ۚ"، كل عمل فعله الإنسان، وكل كلمة قالها الإنسان سوف توزن، لذلك يقول النبي –صلَّى الله عليه وسلم– "إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالًا" هو لا يعلم قيمة وقدر هذه الكلمة، هذه الكلمة قد تكون من غضب الله ما تجعله بسبب هذه الكلمة "يهوي في النار سبعين خريفا"[٧] انظر إلى عظم الكلمة.

يجب أن نتعلم أن نزن الأمور بموازين الشرع

قضية الموازين ما بين الدنيا والآخرة تحتاج من الإنسان مراجعة، "وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا"، أنت بالنسبة لك حاجة عادية، "وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ" النور: ١٥، فكيف ننظر إلى الأعمال والأقوال بميزان الشرع؟ كيف نزن الأفراد بموازين الشرع؟ تجد اثنان يتكلمون عن شخص، فلان رجل فذ وفلان رجل ظالم، ما هي الموازين التي يتحاكمون إليها؟ قد يكون هذا يتكلم في ميزان وهذا يتكلم في ميزان آخر، فميزان الشرع مختلف، كما قلت قد يكون الإنسان عند الناس عظيمًا وهو عند الله حقير، النبي –صلَّى الله عليه وسلم– عمل تجربة عملية لذلك، "مر عليهم رجل فقال ما تقولون في هذا؟ فقالوا هذا رجل من أغنى الناس، هذا رجل حريٌ أن يتكلم أن يُسمَع، وإذا خطب أن يُنكَح" ده واحد ده الناس كلها تحب تقرب منه، أن يبقى قاعد معاها وأنه يتقدم لهم، "ثم مر رجل فقال النبي –صلَّى الله عليه وسلم– ما تقولون في

---

[٦] "إنَّ أثْقَلَ صَلَاةٍ علَى المُنَافِقِينَ صَلَاةُ العِشَاءِ، وَصَلَاةُ الفَجْرِ، ولو يَعْلَمُونَ ما فِيهِما لأَتَوْهُما ولو حَبْوًا، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أنْ آمُرَ بالصَّلَاةِ، فَتُقَامَ، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فيُصَلِّيَ بالنَّاسِ، ثُمَّ أنْطَلِقَ مَعِي برِجَالٍ معهُمْ حُزَمٌ مِن حَطَبٍ إلى قَوْمٍ لا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ، فَأُحَرِّقَ عليهم بُيُوتَهُمْ بالنَّارِ" صحيح مسلم

[٧] " إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِن رِضْوانِ اللَّهِ، لا يُلْقِي لها بالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بها دَرَجاتٍ، وإنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِن سَخَطِ اللَّهِ، لا يُلْقِي لها بالًا، يَهْوِي بها في جَهَنَّمَ" صحيح البخاري

هذا؟" رجل غلبان فقير، "قالوا يا رسول الله حريٌ إذا تكلم أن لا يُسمَع له، وإذا خطب ألا يُنكَح" مين اللي هيقبل بيه ده، "فقال النبي –صلَّى الله عليه وسلم– لهذا الفقير خير من ملء الأرض من مثل هذا"[٨].

شوف المفارقة، "انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ "، ده في الدنيا "وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ" الإسراء: ٢١ حاجة مختلفة تمامًا، المفاضلة في الآخرة مختلفة تمامًا، لذلك قال ربنا –سبحانه وتعالى– عن وصف أوصاف يوم القيامة، "خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ" الواقعة: ٣، إنسان مرفوع في الدنيا يُخفَض و–العياذ بالله– "المتكبرون يوم القيامة يحشرون أمثال الذر" النمل، "يطؤهم الناس بأقدامهم"[٩]، المعايير اختلفت، "فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ"، العلماء لما اتكلموا في مسألة الموازين ليه جت جمع، بعضهم قال: لتعدد الأعمال الموزونة، إن الجمع ده للموزونات مش للميزان، قال بعضهم: أن الأعمال توزن بدلائل جاءت في القرآن والسنة، أن الله الذي يزن الأعمال، والشخص نفسه يوزن، يعني ممكن هو الشخص نفسه بيتحط أو الأعمال تُجسَّد وتوضع، أي كان فوجدوا أن أكثر من حاجة ورد لها ذكر أنها توزن، فلذلك جاء هذا الجمع.

أو بتعدد الأشخاص، وأهل السُنَّة أو الجمهور بيثبت ميزان حقيقي يوم القيامة، لأن ده مش مجازي، مش معنى مجازي، يثبتون ذلك، "فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"، يبقى القضية كيف تُغلِّب أيضًا جانب الحسنات، يعني طالما فيه موازين أيضًا هذا يفتح باب أمل لمن وقع في بعض المعاصي، لأن القضية "اتبع السيئة الحسنة تمحها"[١٠]، حاول تكثر في الحسنات، وفي الحسنات القوية الماحيات التي تكون ثقيلة، لذلك ابن عمر لما سمع حديث اتباع الجنازة، وإن اللي صلَّى الجنازة ويتبعها "له قيراط والقيراط مثل جبل أُحد"[١١]، تخيل وزن جبل أُحد، مثل جبل أُحد، فندم ابن عمر قال: "كم فرطنا من قراريط"، فالإنسان يبحث عن الأعمال التي تُثقِّل الميزان، تجعل ميزانه ثقيلًا يوم القيامة، وكما قلنا الذي يريد أن يصيب الأفعال والأقوال الثقيلة فعليه باتباع القول الثقيل، "إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا" المزمل: ٥.

من يبتعد عن القرآن يتأثر بمعايير أهل الدنيا

والذي يترك هذا القول الثقيل اللي هو القرآن غالبًا ما يُستخَف، يصبح إنسان خفيف يضَّحك عليه، "فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ" الروم: ٦٠، فالإنسان لو ابتعد عن القرآن سهل جدًا أنه يضَّحك عليه، سهل جدًا إن هو يتأثر بمعايير أهل الدنيا، "فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"، أي الفائزون، والفلاح دائمًا يأتي لمن قطع وشق شيئًا، الفلاح بيشق الأرض، قيل سُمي السحور كما قال بعض الصحابة، النبي –صلَّى الله عليه وسلم– أطال بهم صلاة القيام حتى خشينا أن يفوتنا الفلاح، فبعضهم اختلف قالوا ليه سموا السحور فلاح؟ فقيل ممكن طول الفترة دي البطن

---

[٨] "مَرَّ رَجُلٌ علَى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقالَ: ما تَقُولونَ في هذا؟ قالوا: حَرِيٌّ إنْ خَطَبَ أنْ يُنْكَحَ، وإنْ شَفَعَ أنْ يُشَفَّعَ، وإنْ قالَ أنْ يُسْتَمَعَ، قالَ: ثُمَّ سَكَتَ، فَمَرَّ رَجُلٌ مِن فُقَرَاءِ المسْلِمِينَ، فَقالَ: ما تَقُولونَ في هذا؟ قالوا: حَرِيٌّ إنْ خَطَبَ أنْ لا يُنْكَحَ، وإنْ شَفَعَ أنْ لا يُشَفَّعَ، وإنْ قالَ أنْ لا يُسْتَمَعَ، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: هذا خَيْرٌ مِن مِلْءِ الأرْضِ مِثْلَ هذا" صحيح البخاري

[٩] "يُحْشَرُ المُتَكَبِّرُونَ يومَ القيامةِ أمْثَالَ الذَّرِّ في صُوَرِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ من كلِّ مَكَانٍ ، يسافرونَ إلى سِجْنٍ في جهنمَ يُسَمَّى بُولَسَ ، تَعلوهُمْ نارُ الأنْيارِ ، و يُسْقَوْنَ من عُصارَةِ أهلِ النارِ ؛ طِينَةَ الخَبالِ" حسنه الألباني

[١٠] "اتَّقِ اللهَ حيثُما كنتَ ، وأتبِعِ السَّيِّئةَ الحسَنةَ تَمْحُهَا ، وخالِقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسنٍ " حسنه الألباني

[١١] "مَن صَلَّى علَى جِنازَةٍ فَلَهُ قِيراطٌ، فإنْ شَهِدَ دَفْنَها فَلَهُ قِيراطانِ، القِيراطُ مِثْلُ أُحُدٍ" صحيح مسلم

كانت خاوية، فأول ما شق البطن كان هذا الطعام، أو السحور هو الذي يبلغهم الوصول للمغرب، فاتسمى السحور فلاح اللي بيخليهم يستطيعوا أن يشقوا الصيام وهذا طول النهار إلى المغرب.

كل إنسان بداخله الخير والشر

فقضـــية الفلاح فيها شَـــق، وتعب "فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"، فازوا بعد تعب وكَد، "وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ"، عاش حياته براحته، معملش أي حاجة تقيلة على نفســه، لم يجاهد نفســه أبدًا، لم ينهى نفســه عن الهوى، "وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ"، وكانت حياته تافهة خفيفة، "فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ" الأعراف: ٩، خسروا أنفسهم ابن عاشور قال كلمة جميلة جدًا، قال: "خسـروا أنفسـهم فقدوا فوائدها"، يعني إيه خسـروا أنفسـهم؟ قال معناها، فقدوا فوائدها، يعني إيه فقدوا فوائدها؟ "خَسِرُوا أَنفُسَهُم".

قال ابن عاشــور وضــح وأطال ملخص الكلام وغيره من المفســرين، أن هذه النفس كانت لها قيمة عالية، كان ممكن تصل بهذه النفس إلى الفردوس، كان معك عملة عظيمة أنت خسرتها، خسرت الفوائد التي كانت تستطيع نفسك أن تفعلها، يعني بداخل نفس كل منا تقوى، وبداخل نفس كل منا فجور، "وَنَفْسٍ وَمَا سَــوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا" الشمس ٧: ٨، فالذي يُخرِج التقوى التي بداخل النفس هو الذي فاز بنفسه، والذي يُخرِج الفجور الذي بداخل نفسه ويغطي على التقوى هو الذي خســر نفســه، تاني، هذه النفس نفس غالية، كرَّمها الله وأعطاها القدرة على الوصــول للجنة، لكن النفس هي إما هي خُيرت، فهذه النفس، فقال ربنا –سبحانه وتعالى– "قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا" الشمس: ٩، اللي هيتعامل مع النفس أنه يزكّيها ويربيها ويدعو الله –عز وجل– أن يطهرها له هو الذي يُفلِح، أما من يترك النفس فقد خسرها، خسر.

النفس دي كانت ممكن تدخلك الفردوس أدخلتها أنت جهنم و–العياذ بالله–، ده معنى فقدوا فوائدها، إن كل واحد عنده طاقة، كل واحد ممكن يبقى عنده موهبة، ممكن الموهبة دي يستغلها في الطاعات، في البذل، أنت ممكن تجد عند أهل الباطل مواهب فذَّة، يعني ممكن يجاهد ويســافر ويتعب عشــان الباطل، عنده مواهب فعلًا بيســتغلها في الباطل، يعني فيه مواهب أنت ممكن تتعجب، يعني واحد زي أحمد موســى ده موهوب، ده المفروض نســمي دي اسمها موهبة مثلًا، حد أما يبقى عند القدرة دي عنده الموهبة ده تتسمى بإسمه الموهبة دي، أو الحسيني مثلًا، دي مواهب معينة هو استغلها في مكان معين، كان ممكن يستغلها استغلال آخر بس كان هيغير الموهبة دي تمامًا مش نافعة.

الشاهد أن كل إنسان عنده مواهب هو هيستغلها إزاي؟ فكلمة، زي ما النبي –صَّلى الله عليه وسلم– قال: "نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس"، إيه هما؟ "الصحة والفراغ"[١٢]، كتير من الناس عندها نفس الحاجتين، عنده وقت وصحة، عنده نفس الاتنين نفس العملتين معاه، واحد بالعملتين دول ممكن يحصــل على الفردوس، واحد بالعملتين دول ممكن

[١٢] " نِعْمَتانِ مَغْبُونٌ فِيهِما كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ والفَراغُ" صحيح البخاري

ينزل إلى قاع جهنم –والعياذ بالله–، يعني اللي دخل الفردوس ده مكنش معاه حاجة زيادة صـــحة وفراغ بس، مش فلوس، هو صحة وفراغ، قعد يذكر ربنا يقوم الليل، يفعل الطاعات، واحد تاني عنده صحة وفراغ استغلهم في معاصي، لذلك النبي –صلَّى الله عليه وسلم– استعمل أيضًا لفظ بيُستعمل في التجارة فقال "نعمتان مغبونٌ"، الغُبن الخسارة الفاحشة، "كثيرٌ من الناس الصحة والفراغ".

شرح لمعنى الباء

فهنا "فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم"، طب ليه خسروا أنفسهم؟ "بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ"، وزي ما قلنا ده من محاور الســـورة التعامل الخاطيء مع الآيات، "فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِـــرُوا أَنفُسَـــهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ"، "بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ"، فيها كام باء؟ أيوه اتنين، فيها بائين، الباء حرف له معنى، حروف المعاني ســـواء حروف جر بيبقى ليها معاني دلالات، إحنا أحيانًا ممكن نقف مع لفظة، زي ما وقفنا مع لفظة البأس، أو لفظة قبل كده المرة اللي فاتت وحاولنا نحللها ونتكلم عن المعاني اللي فيها لفظة الحرج، نجيب أصلها اللغوي وعلماء اللغة اتكلموا عليها، أحيانًا العلماء يقفوا مع الحرف، وده يعرفك أد إيه القرآن مُعجِز، فكل حرف له معنى.

بعض العلماء بيقول: كل حرف له أكثر من معنى، بعض العلماء يقول: لا إحنا هنجمَّع كل معاني الحروف ونوصـــل لمعنى واحد، اللي عايز يتوسع في الأمر ده الدكتور محمد الخضري له كتاب إسمه "من أسرار حروف الجر"، "ومن أسرار حروف العطف في القرآن"، ده كتاب وده كتاب ده اللي عايز يتوســـع في هذا الباب، نيجي بقى للباء بتاعتنا هنا، المشهور في الباء، المشهور في معاني الباء في اللغة معنيين أو ثلاثة، ده المشهور لها، بعضهم عدَّ عشر معاني، وبعضهم قال لا احنا هنجمَّع معنى واحد.

أشهر معنيين للباء، وهنقول المعنى الثالث دلوقتي، أشهر معنيين للباء بيسموه باء الآلة أو الاستعانة ده معنى، والباء التانية اسمها باء المصـــاحبة، يعني إيه؟ يعني لما أقول لك مثلًا، أقول لك أنا جيت من القاهرة بالعربية، الباء دي هتبقى باء الآلة أو الاستعانة، يعني الوسيلة الباء دي أنا استعنت بالعربية، طب لما أقول لك تيجي من القاهرة بالسلامة، الباء دي أنت أكيد مش هتركب السلامة وتيجي، الباء دي اسمها باء إيه؟ المصاحبة، فلما يقولوا بسم الله هل أستعين بالله؟ ولا استصحب اسم الله؟ بسم الله فيختلفوا في الباء، لو قالوا باء الآلة أو الاستعانة يبقى معناها أستعين بالله، ولو قالوا باء المصـــاحبة يبقى معناها اســـتصـــحب إســـم الله أثناء القراءة، قراءة القرآن، أو أســـتعين بالله في فهم القرآن، فأنت بتُبسمِل في بداية القرآن.

الباء الثالثة المشهورة باء السببية، عملت كذا ليه بسبب كذا فدي معروفة، طيب بعض المفسرين قال: الباء الأولى باء السبب، والباء التانية باء الاستصحاب يعني إيه؟ السبب أنهم خسروا أنفسهم فخفت الموازين فدخلوا النار "بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ"، أي بسبب وده في اتفاق تقريبًا أن الباء دي باء الإيه؟ السببية، الباء الأولانية سهلة خلاص، واضح كده، خلصنا الباء الأولانية، أى بسبب لماذا خسروا أنفسهم؟ بسبب أنهم كانوا بآيتنا يظلمون.

طيب يعني إيه "بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ"؟ ترتيبها أصلًا يظلمون بآياتنا وقُدِمت الآيات للاهتمام بالآيات ورعاية الفواصل، يعني إيه "بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ"؟ يعني إيه يظلمون بآياتنا؟ يعني إيه كانوا يظلمون بآياتنا يعني إيه؟ بعضهم قال: لو المعنى المصاحبة أي كانوا يظلمون ويفسدون بالرغم من وجود الآيات مصاحبة لهم، آيات تترى، ووجود رسول، وآيات تُتلى عليهم، وآيات كونية تحدث، آيات، آية وآية، ويستمر الظلم بالرغم من وجود الآيات، فده اللي قال أن الباء التانية معناها إيه؟ المصاحبة.

أن الآيات معاهم مستبهمش، آيات مفصلات، زي ما قلنا هيجي في آخر سورة الأعراف، أو في نهاية آخر قصة سورة الأعراف، آيات مفصلات، وقلنا من معاني الصاد التفصيل، آيات مفصلات مش آيات مجملة، ربنا بعت لنا أكثر من ٦ آلاف آية في القرآن، مش سورة واحدة وخلاص، تفصيل، وآيات كونية تحدث، وبالرغم من ذلك يُعرِضون؛ فاستحقوا العذاب.

بعضهم قال معنى تاني غريب جدًا، إن الباء دي باء الآلة والاستعانة إزاي يعني؟ أي كان يظلم ويستعين بالآيات على الظلم، كان بيستغل الآيات على الظلم أنه يشرعن مثلًا لنفسه اللي بيعمله، أو أنه يجعل الآية، دي زي ما ربنا قال "إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا" فصلت: ٤٠، أنه يجعل الآية سبب لصرف الناس عن الدين، بدل ما تكون الآية سبب في سعادة الناس وفي سعادته، تكون الآية سبب في شقائه –والعياذ بالله– زي ما قتلوا الناقة كده وعقروا الناقة، فظلموا واستعملوا الآيات والدين، استعملوا الدين في ظلمهم.

وبعضهم قال: أن حاجة كده بس دي طويلة شوية نتكلم فيها، أن في حاجة أحيانًا بيسموها التضمين، أن الفعل يظلمون ده معاه فعل تاني مستخبي جواه، اكتشفناه إزاي؟ بحرف الجر اللي هو الباء ده، الباء ده بيكشف عن فعل مستخبي مُضمَّن، فقالوا أن الفعل ده مُضَمَّن بيجحدون، أن الباء دي بتيجي، مبتجيش مع الظلم، لأن هو كان متوقع يظلمون الآيات، لذلك بعضهم قال أن الباء دي زائدة، وأن ظلموا الآيات، يعني إيه ظلموا الآية؟ لم يقدروها قدرها، زي القرآن كده احنا بنظلم القرآن، لما نهجر القرآن ده ظلم.

فتخيل لما أنت تتعامل مع القرآن أن مجرد كتاب الحرف بعشر حسنات، أنت كده بتظلم القرآن، القرآن أعظم، هو فيه ذلك نعم، القرآن غيَّر أمة، القرآن نقل الصحابة نقلة عالمية، أنت لما تتعامل معاه على أنه حاجة كلمتين أقراهم كده وخلاص أرقق قلبي، ده ظلم للقرآن، ده كتاب أمة مش كتاب حتى دولة، كتاب أمة، غيَّر أمة، أقام أمة بالفعل حدث ذلك، فظلم جدًا للآيات أنك تتعامل معاها كده.

فمن معاني أيضا "بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ"، أن من أسباب أن الإنسان يكون خفيف في حياته، وأفعاله خفيفة وكلامه خفيف، فتخف الموازين، التعامل السطحي مع الآيات أن يظلم الآيات، يشوف آية عظيمة زي الخسوف ويتعامل معها ببرود ده ظلم للآيات، فدي المعاني اللي قيلت "بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ".

ثم قال ربنا –سبحانه وتعالى– "وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ" الأعراف: ١٠، إن شاء المرة القادمة هنتكلم عن علاقة التمكين في الأرض بالآيات السابقة، ثم لماذا جُعلت هذه الآية مقدمة للآيات، وبداية خَلق آدم، والتفصيل في قصص الأمم من أول لحظة الخَلق، بإذن الله –عز وجل– هذا ما نعرفه في الدرس القادم، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك.

تم بحمد الله

شاهدوا الدرس للنشر على النت في قسم تفريغ الدروس في منتديات الطريق إلى الله وتفضلوا هنا:

http://forums.way2allah.com/forumdisplay.php?f=36